الفصل السابع

المقياس (هو التأليف بين الكم والكيف)

قلنا أن الكم تعيين خارج عن الموضوع المعين . أما الكيف فهو تعيين باطن يتحد مع الشيء المعين . فالتعيين الذاتي هو إذن خاصة الكيف لا الكم . وها نحن قد وجدنا التعيين الذاتى يظهر فى التقدم الكمى اللامتناهى ، وفى مقولة النسبة ، فالمقدار يتحول إلى مقدار آخر . وهذا الآخر يتحد مع الأول . فعلاقة المقدار الأول هى اذن علاقة مع الذات . إنه يعين ذاته . وظهور التعيين الذاتى هنا هو عودة الكيف مرة أخرى .

ففى النسبة ٦ ÷ ٣ = ٢ نجد أن الطرف ٦ ÷ ٣ هو علاقة بين مقدارين، فهو إذن كمى . ولكن الطرف الآخر من المعادلة وهو ٢ يمثل مقداراً يعين ذاته بذاته. وذلك أنه تكون بانصهار المقدارين فى مقدار واحد . وهذا يعنى أن هذه العلاقة الذاتية هى علاقة كيفية .

ويمكن أن نصوغ ذلك على النحو التالى : نحن هنا بصدد موجود يعين ذاته، والمتعين بذاته هو الوجود لذاته . والوجود لذاته مقولة من مقولات الكيف . فنحن هنا إذن بازاء تعيين كيفى . ونحن نستطيع أن نغير الطرف الأول من المعادلة دون أن نغير الطرف الثانى أو حاصل القسمة . فالطرف الأول يمكن أن يصبح ١٢ ÷ ٦ أو ١٢٠ ÷ ٦٠ ويبقى الطرف الثانى ٢ دائما ولكننا لا نستطيع أن نغير الطرف الثانى دون أن نعدل فى الوقت نفسه الطرف الأول من المعادلة فنحن لا نستطيع أن نجعله ٣ بدلا من ٢ إلا إذا جعلنا النسبة ٩ ÷ ٣ .

والتعيين الذي يتحد مع الوجود ويتغير بتغيره هو تعيين كيفى .

هكذا نجد فى النسبة مزيجا من الكم والكيف . وقد رأينا فى الفصل السابق إن الكيف حين يأخذ شكل النبذ والجبذ يتحول إلى كم . ونرى هنا أن

الكم بدوره حين يأخذ شكل النسبة يتحول من جديد إلى الكيف . والنتيجة هى كم ذو كيف أو وحدة الكم والكيف . وها هى مقولة جديدة أو دائرة جديدة . إنها دائرة المقياس . فالمقياس هو التأليف بين الكم والكيف .

إن معنى المقياس عند هيجل يشير إلى معنى التوازن والتناسب .

فاذا تغيرت النسبة بين أضلاع المربع كفّ الشكل عن أن يكون مربعا ، وفى الكيمياء نعرف أن الماء مركب من أوكسجين وهيدروجين بنسبة ١ : ٢ . فإذا أصبحت هذه النسبة ١ : ١ حصلنا على شيء آخر غير الماء إطلاقا . وهكذا نستطيع أن نعرف المقياس بأنه تعلق الكيف بالكم أو بأنه كم يتعلق به الكيف . وكذلك إذا زاد الاقتصاد عن حد (مقياس) معين أصبح بخلا وإذا زادت حرارة الماء عن حد معين انقلب إلى بخار فالكيف هنا يتعلق بكم الحرارة .

إننا فى جميع هذه الحالات نجد إن الكيف يتعلق بالكم . وهذا هو معنى المقياس عندما صادفنا الكم لأول مرة فى الجدل بدا لنا غريبا عن الكيف . فقد عرفناه كتعيين خارج عن وجود الشيء . إنه يمكن أن يزيد أو ينقص دون أن يغير من كيف الشيء ، ولكن الجدل هنا يبين لنا أن الكم والكيف ، لا ينفصلان ، فكل منهما اذا أخذ منفصلا يصبح تجريداً . ومن هنا تعريف هيجل للمقياس بأنه المقدار الكيفي .

المقياس ، وشأنه فى ذلك شأن سائر المقولات تعريف للمطلق . وقد لاحظ هيجل أن الله قد نظر إليه على أنه مقياس جميع الاشياء . وتقع دائرة المقياس فى ثلاث مقولات :

١ – المقدار النوعى .

٢ – اللامحدود .

٣ – لا تناهى المقياس .

١ - المقدار النوعى

المقياس كما قلنا هو وحدة الكم والكيف . ولكن هذه الوحدة تبدو لنا أولاً وحدة مباشرة ويقصد هيجل بالمباشرة هنا عدم وجود وساطة حقيقية بين الكم والكيف . فإحالة كل منهما الى الآخر أو تعلق كل منهما بالآخر . إنما هو نسبى فقط . فليس بينهما تعلق مطلق كما سنجد ذلك فى دائرة الماهية بين الموجب والسالب ، أو بين العلة والمعلول حيث لا يكون هناك معنى للأول بدون الآخر . ولهذا يقول هيجل إن الوحدة بين الكم والكيف هى وحدة مباشرة . اما الوحدة الكاملة فتعنى أن أى تغير فى كم الشىء يتبعه تغير فى كيفه . والوحدة المباشرة هنا تعنى أن الكيف يتعلق بالكم إلى حد ما . أى أن الكم يمكن أن يتغير ضمن حدود معينة دون أن يؤثر ذلك علي الكيف . فالرابطة هنا ضعيفة . وهذا ما يقصد بالاختيار النوعى .

وأقرب مثال على المقدار النوعى فى الطبيعة هو تحول الماء إلى جليد او بخار. فهناك نوع معين أى ١٠٠° تزول بعدها سيولة الماء . فمقدار الحرارة يمكن أن يتغير حتى يصل إلى ١٠٠° دون تغير في الكيف . وبعد هذه الدرجة تزول السيولة من الماء ويتحول إلى بخار . وكذلك فان المقدار النوعى لتحول الماء الى جليد هو درجة الصفر .

ب - اللامحدود

إن الانتقال من المقدار النوعى إلى اللامحدود يتم على النحو الآتى : قلنا إن وجود كيف معين يتعلق بحد كيفى لا نتجاوزه . ولكنا رأينا أن المعنى الحقيقي للكم يتضمن أن الكم يجب أن يتجاوز نفسه وأن يتجاوز كل حد . فالمقدار النوعى فى دائرة المقياس يجب إذن أن يتجاوز . وإذن لابد للكيف المتعلق به أن يزول. ففى مثال الماء نجد أن كيفا جديدا يتبع الأول أى أن البخار يتبع السيولة، ولكننا لم نستنبط هذا استنباطاً منطقيا، إلا أن قولنا بان الكم يجب أن يتجاوز ذاته يعنى أن الكيف يجب أن يزول. وهكذا نجد أمامنا مرة أخرى كما مستقلا لا

يرتبط به كيف . وبما أن المقياس هو ارتباط كيف بكم . فإن هذا المفهوم الجديد للكم الذي ترك الكيف وراءه وأصبح غير مرتبط به يسمى عند هيجل باللامحدود أو بعديم القياس .

جـ - لا تناهى القياس

نحن الآن بصدد كم مستقل عن الكيف . ولكنا رأينا أن مثل هذا الاستقلال ليس سوى تجريد . فالكم المحض لابد أن يعود إلى الكيف إن هذا الكم الحر إذا هذا اللامحدود سيصبح كيفا مرة أخرى، وارتباطه بالكيف هو أيضا مقياس . وهكذا يتحول اللامحدود إلى مقياس . وتشاهد ذلك فى عالم الطبيعة عند ظهور كيف جديد بعد أن يتجاوز المقدار النوعى حدا معينا ، فعندما تبلغ حرارة الماء ١٠٠° تختفى سيولته . وهذا يعطينا اللامحدود لأن الحرارة يمكن أن ترتفع الى ما لا نهاية فوق ١٠٠° دون أن ترتبط بسيولة الماء . ولكن تحول اللامحدود إلى مقياس مرة أخرى يشاهد عند ظهور كيف جديد هو البخار، فاللامحدود هو نفسه مقياس . والمقياس يتحول إلى لا محدود . هذا اللامحدود الجديد يتحول إلى مقياس وهكذا إلى ما لا نهاية . وهكذا نكون بصدد سلسلة لا متناهية أو بصدد لا متناه كاذب مواز للامتناهى الكاذب الذى رأيناه فى دائرة الكيف وفى دائرة الكم . والوصول إلى اللامتناهى الحقيقي يتم هنا بعودة المقياس إلى نفسه . هذا اللامتناهى أو هذا الوجود لذاته هو ما يسمى بلا تناهى المقياس.

ويمكن الآن أن نلخص جدول المقولات فى القسم الأول من المنطق ، أى مقولات الوجود ، على النحو التالى :

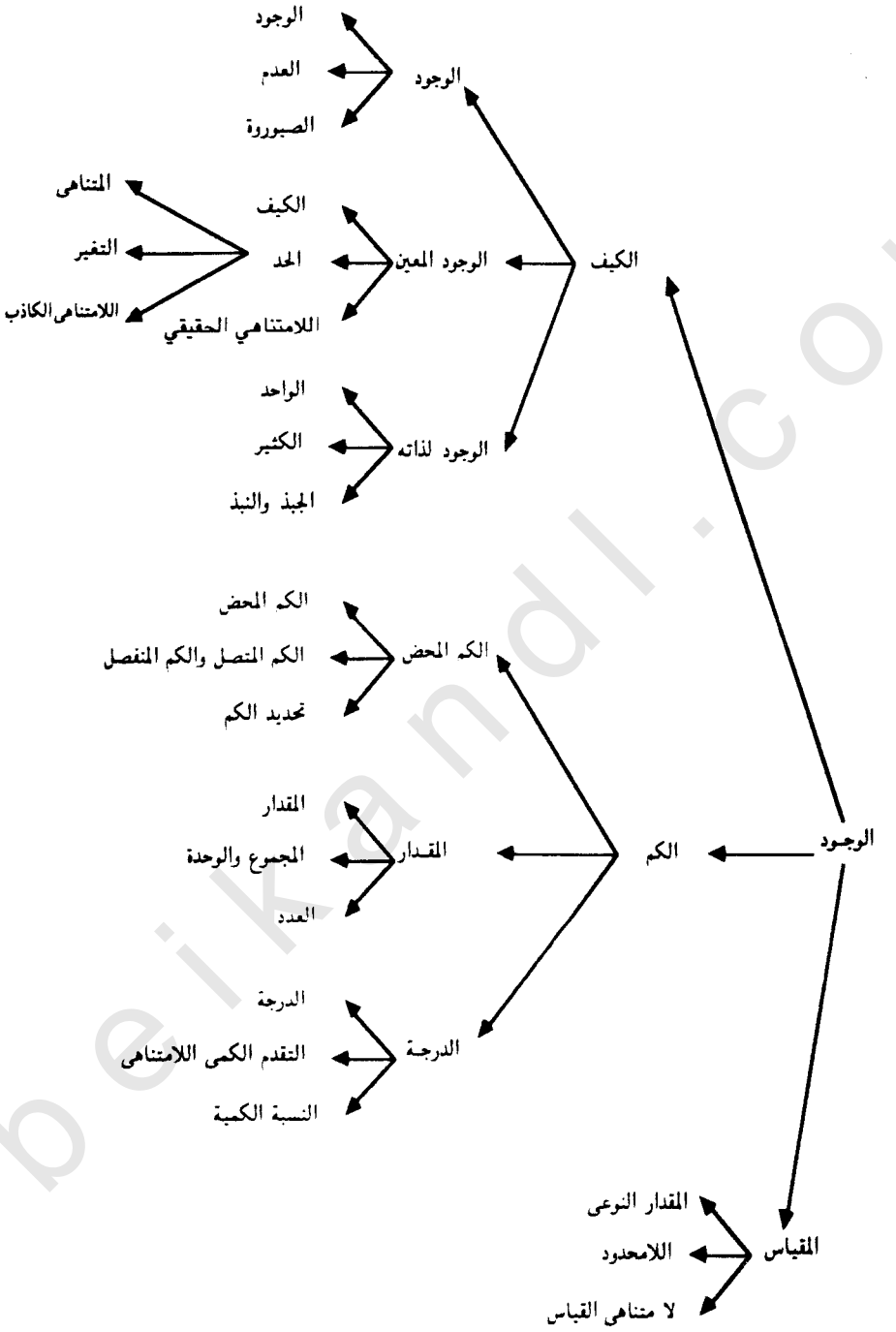

obeikandl.com